
كل الرسل
في الكتاب المقدس
www.christianlib.com
بقلم
هربرت لوكير
دار الثقافة

بـولـس
الرســـول الفائق

يشبه العنوان فأس إليشع، فهو مستعار! فقد تصادف أن كان عنواناً لأحدث التحليلات لشخصية ورسالة القديس بولس. في كتابه «الرسول الفائق» قدم لنا الدكتور ر.أ. دوايت. استاذ اللغة اليونانية والفلسفة في كلية اللاهوت المعمدانية باسكتلندا، دراسة مفيدة عن الرسول بولس: ويمكن وصف كتابه العظيم الفائدة هذا، بأنه صورة حديثة». يخبرنا الدكتور وايت أن الهدف من هذه الصورة أن يقدم لنا أشهر الرسل

كأعظم المسيحيين

وأعمق المعلمين تفكيراً

وأكثر الأصدقاء إخلاصاً

وأشجع المغامرين

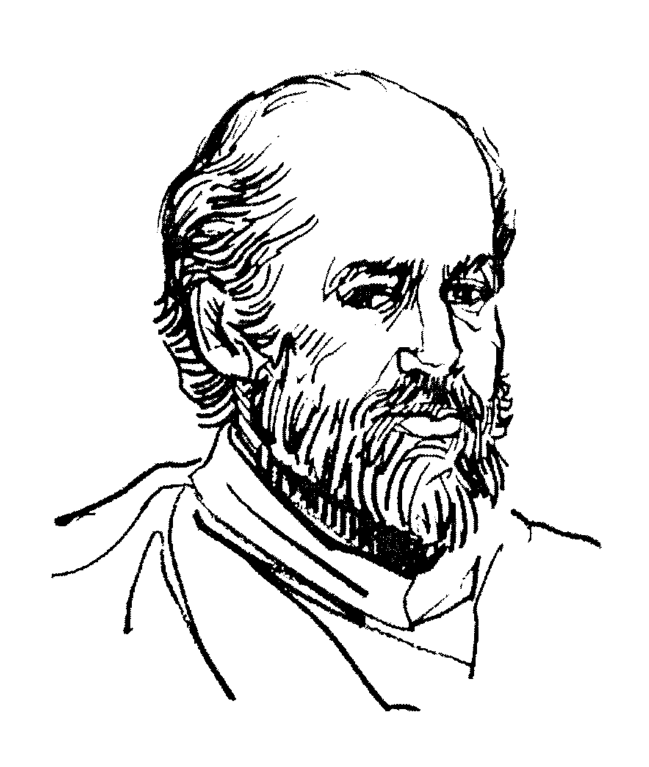
وأكثر المتألمين بسالة

وأكثر القديسين مدعاة للسرور

بولس الطرسوسي، الجندي والعبد والمحب ليسوع المسيح ربنا

والدليل على أن مؤلف الكتاب المذكور نجح في مهمته واضح من الطريقة التي جعل بها رسول القرن الأول الفائق يعيش ثانية بين التلاميذ العاديين في القرن العشرين.

إن رسم صورة مكتملة لبولس يتطلب مساحة كبيرة، لم نستطع للأسف أن نصل إليها لمثل هذا القديس المغامر لأجل المسيح. ومن ذا الذي يمتلك موهبة تمكنه من رسم صورة كاملة لهذه الشخصية الرائعة والذي كان تجديده عنيفاً ومثيراً، وكانت حياته مليئة بجلائل الأعمال ومواجهة الأخطار، والذي استطاع أن يحول المسيحية من طائفة عبرية صغيرة إلى عالمية. كما عبر عن ذلك أرنست هوسر



بطريقة جيدة في العدد الصادر في يناير ١٩٦٧ من مجلة الريدرز دايجست. لدينا مادة موثقة عن تاريخ حياة بولس أكثر مما لدينا عن تاريخ حياة أي شخصية أخرى في العهد الجديد باستثناء ربنا. إنه يبدو مسيطراً على أحداث سفر أعمال الرسل! أما عن رسائله التي لا تقدر بثمن، فهي بالمثل موثقة جيداً ومليئة بلمحات عن تجاربه وانتصاراته. إن أزماته العديدة، وقراراته السريعة، والمرات التي نجا فيها من الموت بأعجوبة وموجات العنف المتفرقة التي اجتاز فيها تجعل من حياته واحدة من أعظم قصص المغامرات في كل العصور.

ألم تتساءل ذات مرة عن الشكل الحقيقي لأول لاهوتي مسيحي بارز؟ ومع أن الفنانين حاولوا رسم صورته، إلا أنه

لا توجد صورة معاصرة لبولس كل ما لدينا من القرن الرابع لوحة مزدوجة وميدالية كبيرة من المقبرة الرومانية في دوميتبلا، وطبق من الزجاج في المتحف البريطاني بلندن. ومن هذين المصدرين، ومن كتابات قديمة، قدم لنا فولتون أورسلر في كتابه «أعظم إيمان على مر العصور» هذه الصورة الفريدة للرسول الفائق:

إن بولس الذي كان ينفث تهدداً وقتلاً، كان قصير القامة. ولكنه كان عريض المنكبين. فقد صلبت الانتصارات الرياضية في شبابه من عوده المتناسق. كان جسده رشيقاً على الرغم من رأسه الأصلع قبل الأوان والشعيرات البيضاء المبكرة التي زحفت على حاجبيه المتلاحمين ولحيته الكثيفة وهو في الثلاثين من عمره. ومع ذلك لم يكن بنيانه القوي، ولا بشرته الصافية، ولا العزيمة التي توحي بها أنفه الطويل المعقوف، ولا حتى أسلوبه الدال على السيطرة هو الذي جعل المجمع المزدحم يصمت.

ما ميز بولس، وخلب لب سامعيه، كان إيمانه الملتهب، وغيرته، وحماسه الذي كان يومض ويلمع في تلك العينين الواسعتين اللتين كانتا مثل نافذتين تخرجان هواء لافحاً من فرن بشري. والشخص الذي أقر بأن هيئته ليست مؤثرة وقف في مجمع دمشق وأثر على الجميع بنبرة صوته، بادئاً هناك خدمة للمسيح دامت طوال ٣٩ سنة.

فيما يتعلق بمظهره الجسدي، هناك بعض الوسائل تطلعنا على معلومات لابأس بها. لم يكن مظهره ذا تأثير طاغ، ولم يكن جذاباً أو باعثاً على المهابة والاحترام. كان رجلاً صغير الجسم، واهناً، بسيطاً، يعاني من قصر في نظره، وكان أصلع منذ مقتبل حياته. هناك رواية في كتاب أبو كريفي من القرن الثاني تحت مسمى أعمال بولس تقول «كان رجلاً قصير القامة، أصلع جزئياً، ساقاه معوجتان، ذا بنيان قوي، عيناه قريبتان من بعضهما، وأنفه كان معقوفاً إلى حد ما». قال أعداؤه إن «حضوره الجسدي ضعيف، وكلامه حقير» (٢كو ١٠:١٠). وقال هو عن نفسه «أنا كنت عندكم في ضعف، وخوف ورعدة كثيرة» (١كو ٣:٢).

«عامي في الكلام» (٢كو ٦:١١)

«من خارج خصومات، من داخل مخاوف» (٢كو ٥:٧)

«بضعف الجسد بشرتكم في الأول» (غل ١٣:٤)

«لو أمكن لقلعتكم عيونكم وأعطيتموني» (غل ١٥:٤)

«أريد أن أكون حاضراً عندكم الآن وأغير صوتي» (غل ٢٠:٤)

كل هذه السمات تدل على أن الرسول كان له جسد ضعيف، كان يئن تحت ثقل المسئوليات التي كان منوطاً بها، وهو بالكاد يستطيع تلبيتها. ومع ذلك فقد كان وهج الغيرة يلتهب في هيكله الضعيف، ويكاد يبليه بحماسته الملتهبة. ولكن الله عظم نعمته وقوته بوضع هذا الكنز في آنية خزفية ولكنها كانت آنية أرضية طاهرة.

إن أعظم سجل جذاب عن بولس هو ما يمضي فولتون أورسلر في سرده لنا في كتابه، وهو ما لا يجب أن يفوت أي كارز بالإنجيل. وكل ما يمكننا عمله في بحثنا البسيط أن نضع أيدينا على نقاط محورية قليلة في حياة هذا الرسول، الذي كتبت عنه كتب أكثر من أي شخصية كتابية أخرى، باستثناء المسيح. إن مجموع ما كتبه بولس كمٌ هائل، ربما كان بولس قصيراً في القامة الجسدية، ولكنه يقف شامخاً، ذا قامة مهيبة روحياً حيث يأتي التالي بعد المعلم نفسه في تاريخ الإيمان المسيحي وفي الأدب المسيحي عبر العصور.

١- رجل من طرسوس

يثبت تاريخ الكنيسة أنه في وقت الأزمات يعرف الله أين يجد الإنسان الذي يحتاجه كسلاح في حربه المقدسة.

وكما حدث في الماضي حين احتاج لأناس غيروا وجه التاريخ في العهد القديم، فأقام إبراهيم وموسى، هكذا حدث بالنسبة للعهد الجديد، فقد عرف الله أين يضع يده على أناس عظام، أثبتوا أنهم أفضل عطاياه للكنيسة وللعالم.

وما سجل المسيحية إلا تاريخ حياة أولئك الذين كانت خلفية حياتهم تلائمهم لرفع لواء المسيحية في عالم محتاج، وأسطع النجوم في سمائها هو الرسول بولس الذي جعله الله أسيراً له وشكل حياته بنعمته وقوته ليكون بطلاً رائعا للمسيحية الناهضة والكارز الذي كانت رسالته دائماً - إنجيل الخلاص كهبة الله لعالم خاطيء.

نحن نتفق تماماً مع الرأي القائل إنه: «لولا الجهود المكرسة لهذا الرجل الذي كان يهيم حباً بالمسيح فمن المشكوك فيه أنه كان يمكن للمسيحية أن تصبح ديانة عالمية. لا توجد شخصية في تاريخ الكنيسة تقف بمثل هذا الشموخ أو لها مثل هذا الأثر البعيد مثل هذا الرسول بالنسبة للعالم غير اليهودي. والقرون لم تقلل من بريق شخصيته ولما تزحزح مكانه في التاريخ المسيحي. وحينما وحيثما ترك انتشار الممارسات الدينية الخاطئة بصماته على الكنيسة وجعلها في حاجة إلى نهضة جديدة، كان يتم اللجوء إلى بولس، كما إلى ينبوع يستمدون منه الماء النقي للإيمان المسيحي وإعادة نشر جوهر إنجيل المسيح.

يمكن تجميع خلفية التدريب السابق الذي حصل عليه بولس من سفر الأعمال، ومن رسائله الخاصة. وهذه هي الحقائق المقدمة أساساً منه.

١- يهودي طرسوسي من مدينة كيليكية (أع ٢١:٣٩)

٢- مواطن روماني حر (أع ٢٢:٢٨)

٣- فريسي ابن فريسي (أع ٢٣:٦)

٤- عبراني من العبرانيين من سبط بنيامين (في ٣:٥)

٥- تلميذ غمالائيل، تعلم طبقاً لناموس الآباء الكامل (أع ٢٢:٣، غل ١:١٤)

٦- تعلم اليونانية، والأدب اليهودي (أع ١٧:٢٨، تي ١:١٢)

٧- رجل تغير اسمه (أع ١٣:٩)

ولذلك فإن بولس يتميز عن بقية الرسل كرجل ذي تعليم وثقافة، معداً ومهيأ بتفوق عن طريق الميلاد، والتعليم والخبرات المبكرة ليشغل المكانة الفريدة في تأسيس وامتداد وتهذيب الكنيسة. كم كان مدرباً جيداً ليكون المفسر الرئيسي لأفكار وغرض سيده. وبسبب خلفيته الفريدة وعلاقاته السابقة، كان معداً إعداداً أفضل من رجال الجليل ليأخذ فكرة شاملة عن مهمة المخلص وأهدافه. «إن مراجعة وجيزة للحقائق التي يذكرها بولس عن نفسه ضرورية من أجل فهم كامل لكل ما آل إليه وما أنجزه.

أنا رجل يهودي (أع ٢٢:٣)

بعد بداية العصر المسيحي بوقت قليلُ ولد بولس من عائلة يهودية متمسكة تمسكاً صارماً بتعاليم الفريسيين. وهو من «سبط بنيامين» الوثيق الصلة بجوهر اليهودية في أورشليم. كان يهود طرسوس على علاقة بالحياة العملية في المدينة. وحيث أن بولس كان صانع خيام فمن المرجح أنه امتهن حرفة والده.

وكان عدد كبير من يهود طرسوس مواطنين رومان، بعضهم عن طريق المنحة، والبعض الآخر بالشراء. كان جيروم في القرن الرابع للميلاد يعتقد أن والدي بولس كانا من جيسكالا في الجليل، وأن أباه قد حصل على رعويته الرومانية بعد الذهاب إلى طرسوس كأسير حرب.

عندما كان قائد المئة الروماني على وشك أن يجلد بولس، احتج الرسول بالقول «أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً

رومانياً؟» وبعد مزيد من الفحص، قال بولس «أنا قد ولدت في الرعوية الرومانية» (أع ٢٢:٢٤-٢٩) كانت هذه الرعوية قيمة، لأنها كانت تحمل معها حقوقاً خاصة وامتيازات، من بينها التحصن ضد الجلد أو الصلب، وفي أواخر أيامه، عندما رغب بولس أن يرحل إلى روما، فإن رعويته الرومانية قد مكنته من الرحلة، على الرغم أنه ذهب إلى هناك كسجين (أع ١٩:٢١، ١١:٢٥. ١٢).

وبممارسته لامتياز حصوله على الحرية الرومانية، صاح في البلاط الملكي قائلاً: «إلى قيصر أنا رافع دعواي». وبموجب القانون الروماني، لم يكن لدي السلطات المحلية خيار سوى الرد بالقول: «إلى قيصر تذهب» وتعليق الدكتور وايت جدير بالاقتباس:

«لم ينس بولس أبداً رعويته الإسرائيلية، ولم يقلل أو يبالغ في رعويته الرومانية، ولكنه لم ينس أبداً في كل العصور أولوية عضويته في مدينة الله، واكتشف أخيراً، بعد حياة حافلة أن العالم لم يكن مستحقاً لها، وأن أثمن رعوية للمسيحي هي حقاً في السماء».

على الرغم من حقيقة أن أفراد عائلة بولس كانوا مواطنين رومان، ألا أنهم ظلوا مخلصين لإيمانهم وممارساتهم اليهودية، وهكذا فإن شاول الشاب قد تربى في ظل التعاليم اليهودية الصارمة، وكان يذهب إلى مدرسة المجمع وقد تعلم بكل إخلاص ونبوغ، كما تثبت رسالته إلى أهل رومية، كل ما كان مطلوباً منه كتلميذ للكتب المقدسة وناموس الآباء: «اجتهد أن تقيم نفسك لله مزكى...» (٢تي ١٥:٢). كان عقله يقظاً تجاه التناقض فيما بين السلوك الأخلاقي والديني الصارم المطلوب منه والسلوك الأخلاقي المنحل المنعكس في بيئة تسيطر عليها الوثنية (رو ٢٠:١-٣٢). وعندما كتب بولس إلى أهل فيلبي وصف نفسه بأنه «عبراني من العبرانيين» (٥:٣) هنا كان يعيد تأكيد تراثه الذي يفخر به والذي كان يرجع إلى أبي اليهود، إبراهيم، فهو أبو الآباء وأول عبراني. وهكذا فقد أشار إلى نفسه بالقول بأنه «من نسل إبراهيم» (رو ١:١١). وعلى الرغم أنه أصبح رسولاً إلى الأمم، بعد أن أنقذ من التعصب الضيق الأفق لجنسيته كيهودي فلسطيني، إلا أن بولس لم يفقد أبداً حبه واهتمامه بأنسبائه حسب الجسد (رو ٢:٩-٥). وعندما بدأ يقرأ الأسفار اليهودية بعيون مسيحية، كان أكثر يقيناً عن ذي قبل بأن مصدرها هو الله، حيث كان دائماً يكرر هذه العبارة: «مكتوب»، وهي العبارة التي كان ينهي بها كل جدال ويختم أي نقاش.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد قيل لنا إن بولس، كشاول كان «رجلاً طرسوسياً» وقد قُدِّم لنا بهذه الصفة أولاً، عندما وجد، ليس في مدينته، بل في أورشليم (أع ١:٨،١١:٩). وكما يقول ج. باترسون سميث في كتابه «قصة حياة القديس بولس ورسائله»: «فجأة وعلى غير توقع، يظهر شاول الطرسوسي من المجهول على مسرح التاريخ. يرفع الستار على جمهور من الرعاع يتصارعون ويلقون بالحجارة في الهواء ثم نجد معلماً يهودياً شاباً في خلفية المشهد «مع أردية موضوعة عند قدميه».

ما تأثير طرسوس مسقط رأسه على حياة وشخصية هذا الشاب الفريسي وهو يشاهد استفانوس يقتل بالحجارة من قبل جمهور مسعور من الغوغاء؟ في القرن الأول، فقد كانت طرسوس عاصمة كيليكية، وهي إقليم من أقاليم آسيا الصغرى. ولكونها كانت تقع على مصب نهر سدنوس، كانت تشرف على مكان ذي أهمية كبرى تجارياً بسبب موقعها على واحد من أهم طرق التجارة البرية في العالم القديم – مكان التقاء الشرق بالغرب حيث كانت التجارة تتواصل في كلا الاتجاهين براً وبحراً.

كانت طرسوس أيضاً مشهورة «كمدينة حرة»، وقد

منحت لها حريتها على يد القائد الروماني، مارك أنطونيو، في سنة ٤٢ ق.م. وكمدينة حرة لم يكن مطلوباً منها أن تدفع الجزية المعتادة التي تدفعها المدن المهزومة إلى روما. ومع أن طرسوس كانت جزءاً من الإقليم الروماني، إلا أنها كانت تتمتع بالحكم الذاتي. وكانت المدينة أيضاً مكاناً شهيراً لالتقاء الفلاسفة والشعراء. كانت طرسوس كمدينة جامعية، مركزاً للثقافة وقد أصبحت تشتهر بتعليمها الرواقي. لم يكن المذهب الرواقي يعترف بإله شخصي، ولعلم بولس بسيكولوچيته فقد عرف كيف يقاومه، كما فعل في تعليمه عن النعمة الإلهية. امتدح سترابو، العالم الجغرافي اليوناني الشهير، والمعاصر للإمبراطور أوغسطس أهل طرسوس بشدة لاهتمامهم بالتعليم والفلسفة وشبه المدينة بأثينا والإسكندرية.

لم تكن طرسوس بالنسبة لبولس، مدينة حقيرة، وقد تركت مناظرها ومشاهدها آثاراً لا تمحى على عقله، وحيث أنه نشأ في هذه المدينة الشهيرة حيث قضى سنوات طفولته وشبابه حين كان في طور التكوين. فإنه لم ينس أبداً تجربته هناك، كما تدل كتاباته على ذلك، فقد شهد أسواق العبيد في طرسوس ولاحظ علامات الملكية المطبوعة على جباه وأيدي العبيد الذين كانوا يباعون هناك، ولوجود ذكراها في عقله، استطاع أن يكتب في السنوات اللاحقة هذه الكلمات «لأني حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غل ٦:١٧). ولذلك فعندما كان يفكر في هؤلاء العبيد الموسومين يباعون لسيد، فإنه تبني اللفظ اليوناني Doulos، الذي يعني «العبد» ليوضح كيف أنه في علاقته بالمسيح سيده، كان خاضعاً تماماً لإرادته وتحت سيطرته. وحينما كان صبياً، كان يرى الجنود الرومان بخوذاتهم، وعدتهم الحربية ورماحهم، وقد استخدم الكثير من الاستعارات الحربية في تبشيره وكتاباته (٢كو ١٠:٤، أف ٦). وقد تعلم بولس من المركز الرياضي في طرسوس، لغة الرياضيين التي استخدمها بمهارة بالغة (١كو ٩:٢٤-٢٦).

بالإضافة إلى ذلك، فعندما يرسم بولس صورة لشخصيته في تلك الأيام المبكرة من حياته قبل أن يصير مسيحياً، يخبرنا أنه عاش «حسب مذهب عبادته الأضيق» وأنه كان فريسياً وأنه «حسب البر الذي في الناموس» كان «بلا لوم» (أع ٢٣:٦، ٢٦:٥-١١، في ٣:٤-٨). ياله من اعتراف يقدمه عن نفسه! يقول الدكتور ر.أ و.وايت: «إن الحركة الفريسية برزت إلى الوجود لتدافع عن كل ما هو يهودي ضد تغلغل الوثنية اليونانية والرومانية. وقد خدمت الأمة جيداً في الحفاظ على الديانة والناموس والأخلاق» ولكن منذ القرن الأول للميلاد فسدت واقتصرت على البر الذاتي، والرياء، والتقليد الحرفي بالناموس مع الجمود والآلية.

ولكن بولس كان شاباً يهودياً مثالياً، من الطراز الأول، وعن طريق تهذيبه في البيت والمجمع، كان ملتزماً بالسلوك الخارجي، لا مظهرياً فقط، بل خالياً من أي لوم. كان مستجيباً بالكامل للمتطلبات الطقسية لموسى، مجاهداً دائماً أن تكون حياته نقية خالية من أي لوم، وعندما صار مسيحياً أخذت غيرته على القداسة بعداً آخر، ليس كعبد للناموس، بل للرب الذي جاء كالمكمل والمتمم للناموس. فإذا كان «أوفر غيرة في تقليدات آبائه» متقدماً في الديانة على كثيرين من أترابه في جنسه (غل ١:١٤)، فما أن دعاه المسيح ليكون له حتى فاق كل الآخرين في الخدمة المضحية في الكنيسة المسيحية في عصره، وهو يموت يومياً لأجل المسيح.

مؤدباً عند رجلي غمالائيل

(أع ٥:٣٤، ٢٢:٣)

ربما كان بولس قصير القامة ولكن ما كان ينقصه

جسدياً، قد استعاضه عقلياً. فقد كان بلا شك، أرجح عقلاً من بقية الرسل، لم تكن قدرته الخارقة على الاقناع تثير الكثير من الدهشة عندما نتذكر أنه تعلم عند قدمي غمالائيل، أشهر معلم رباني في عصره، رجلاً متحرراً ذهنياً ومتسامحاً روحياً، كان معلم بولس هذا العالم البارز في الناموس الذي نصح المجمع أن يتركوا الرسل وشأنهم (أع ٥:٣٣-٣٩). كان اليهود يكرمون غمالائيل «كمجد الناموس» وكان أول من أطلق عليه لقب «معلمنا». كان ابن المعلم سمعان، وحفيد هليل، وقد أصبح رئيس السنهدريم في عهد طيباريوس وكاليجولا، وكلوديوس، وقد مات قبل سقوط أورشليم بـ ١٨ سنة.

تضمن تهذيب هذا المعلم الشهير «المكرم من قبل كل الشعب» دراسة شاقة للأسفار اليهودية جنباً إلى جنب مع التعليقات الشاملة عليها من قبل معلمي اليهود. وكتلميذ لغمالائيل، تمسك بولس بدراسات معلميه تمسكاً شديداً كما يظهر من ولائه فيما بعد للناموس واستخدامه المتكرر لأساليبهم. كان المطلوب من تلاميذ غمالائيل أن يتعلموا حرفة حتى يمكنهم في النهاية أن يعلموا دون أن يصبحوا عبئاً على الشعب. ومن المرجح أن بولس مارس حرفة شائعة في طرسوس، وهي صناعة الخيام من صوف الماعز، وقد أفادته مهارته في هذه الحرفة فائدة كبرى في مقتبل أيامه أثناء قيامه بالخدمة الرسولية الشاملة.

كانت معرفة بولس للغة أيضاً إضافة لتفوقه العقلي ولمقدرته كمبشر وككاتب.. إنه «كعبراني من العبرانيين» بمعنى أنه كان يهودياً خالصاً، كان ملماً إلماماً جيداً بلغته الأصلية، وقد تعلم أيضاً اليونانية ومن المرجح اللاتينية كذلك. وفي عظته الشهيرة على تل مارس، اقتبس بولس سطراً من أراتوس، وهو فيلسوف رواقي شاعر من كيليكية، وكان قد مات قبل ولادة بولس بوقت طويل. «كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته» (أع ١٧ :٢٨). في رسائله وأحاديثه، كان الرسول يقتبس عادة من العهد القديم في طبعته اليونانية، ولذلك فإن الدكتور وايت يقول: «كانت اللغة اليونانية لغته الأصلية وكانت العبرية مجرد لغة ثانية». كانت بلاغة بولس في اللغة اليونانية هي التي أعطته إلماماً فائقاً باللغة الدارجة لمعظم شعوب العالم المعروف آنئذاك مما كان يعد أفضل مصدر قوة للعمل المرسلي في العالم في القرن الأول، ولاشك أن خلفيته الثقافية ومقدرته اللغوية قد أعطته الفرصة للتقرب من رئيس الكهنة ونوال ثقته (أع ٢٢:٥).

كما أن مؤهلاته العديدة أتاحت له الحصول على مقعد في السنهدريم، قبل أن يصبح بولس مسيحياً، إذ كان حاضراً عندما كان المسيحيون يحاكمون أمام هذه الهيئة الحاكمة، «وأعطيت صوتي ضدهم R.V» [1]. وبما أن حق التصويت كان قاصراً على المتزوجين فقط من الرجال، فإن ذلك يوحي بأن بولس كان متزوجاً، ويقول بعض الكتاب إننا نجد دليلاً على وجود زوجة لبولس قد ماتت في الرسالة إلى رومية «سلموا على روفس المختار في الرب وعلى أمه أمي» (١٣:١٦). والاستنتاج المنطقي المستمد من هذه التحية أن أم روفس كانت أماً لزوجة بولس. وفي هذه الحالة كانت ابنة سمعان القيرواني (الذي أجبر على حمل صليب يسوع إلى الجلجثة) وكان أباً لروفس (مر ١٥:٢١).

شاول الذي هو بولس (أع ١٣:٩)

التغيير ذو أهمية إلى حد ما والاسم شاول هو Shaul في العبرية. ومن المحتمل أن هذا هو الاسم الذي لقبه به والداه عند ميلاده تيمناً باسم أول ملك لإسرائيل، ألا وهو شاول. ولكن بولس كان الاسم الروماني الذي اختاره وهو الاسم الذي نال العظيم من التكريم والاحترام عبر القرون،

١- وردت في ترجمة فاندايك باللغة العربية هكذا: «ولما كان يقتلون ألقيت قرعة بذلك» (أع ٢٦:١٠) (المترجم).

يبدو أن تغيير الاسم هذا بعد تجديده قد حدث في قبرص (أع ١٣:٤،٩) ربما كمجاملة لسرجيوس بولس، والي الجزيرة الذي اعتنق المسيحية.

شاول يعني «المطلوب» بينما بولس يعني «الصغير» أو «الشخص الصغير الجسم» مما حدا بعدد قليل من الكتاب أن يقترح وجود علاقة بين هذا الاسم وقامته القصيرة. في لسترة، اعتقد الناس أن بولس هو هرمس وهو إله يوصف أحياناً بأنه صغير الجسم ومفعم بالحيوية (أع ١٤:١٢).

٢- مضطهد الكنيسة

ذُكر بولس أولاً في العهد الجديد كشاب في حوالي الثلاثين من العمر وهو الذي وضع الشهود ثيابهم عند قدميه عند رجم استفانوس، ولذلك فقد كان من الموافقين على قتل ذلك الشهيد (أع ٥٨:٦٠، ٢٢:٢٠). من المرجح كثيراً أن بولس كان من المشار إليهم من مجمع الليبرتينيين والقيروانيين... ومن الذين من كيليكيا (مسقط رأسه). الذين كانوا «يحاورون استفانوس» وقد اشترك في اتخاذ القرار بقتله كمجدف. وفيما بعد أصبح العامل الرئيسي في الاضطهاد الشديد الذي حدث للكنيسة الفتية والسريعة النمو. بعد أن احتمل مكان الصدارة في أورشليم كعضو نشط لا يكل في حزب السلطة الكهنوتية، لم يظهر هذا المضطهد الرئيسي للقديسين أي رحمة حيث كان يسطو على البيوت للقبض على المسيحيين (أع ١:٨-٤، ١:٩-٢).

كانت العوامل المسببة لتفجُّر ثورة غضب الفريسيين ضد المسيحيين الأوائل معروفة جيداً. فقد ظهرت من بين اليهود الأرثوذكس طائفة جديدة، الناصريون، والذين اتبعوا يسوع الناصري، وقد أكدوا أنه المسيا المتنبأ عنه في القديم. وقد اعتقدوا هم أنفسهم أنهم «إسرائيل الله» الجديد الحقيقي أهل العهد الجديد، الذين سوف يتمون كل ما قصده الله لشعبه وأنهم سوف يرثون كل الوعود المعطاة في التاريخ العبري لشعب العهد القديم.

كانت هذه المزاعم الجريئة من جانب عدد قليل من القرويين غير المتعلمين من الجليل، وخاصة ممن اتبعوا المسيا المصلوب والمقام، مضادة للتعاليم اليهودية ودراسات الربانيين التي تلقاها بولس. كان بولس - شأنه شأن الفريسيين الآخرين - يتطلع إلى المسيا الموعود به، ولكن ليس إلى شخص يموت كمجرم على قطعة من الخشب. كان بولس ينتظر مسيح الله الذي يأتي بكل مجده كالملك. ولذلك، فإن هذا التعليم الجديد «لشيعة الناصريين» (أع ٢٦:٩-١١) كان بمثابة تهديد للمبادىء الأساسية لليهودية كما فهمها الفريسيون، ولذلك كان يجب إبادتهم. مضى بولس قدماً لإبادة هذه الهرطقة التجديفية من أصولها، وكان هذا القرار هو الشغل الشاغل في حياته (غل ١٣:١). ولأن حقده قد أعماه، فقد ظن أن إرادة الله أن يقاوم بكل وسيلة في متناول يديه كل من اتبع هذا الطريق. ويذيقهم الموت، ويقضي على الكنيسة (أع ٣:٨).

لما كان بولس معادياً بشدة للإيمان المسيحي، ومعارضاً بنوع خاص لبعض تعاليمه الثورية (بالنسبة له)، فقد كان جاداً عندما حاول أن يكتسح مثل هذه الهرطقة ويسكت كرازة الرسل. كان يشعر بحنق شديد وغضب مكبوت تجاه القديسين الذين قلبوا عليه المائدة وأفسدوا خطته عندما حملوا معهم إلى المنفى إيمانهم بيسوع الناصري، كالمسيا الذي جاء من السماء. ولما سمع بولس أن دمشق قد صارت ملجأ مسيحياً للناصريين الهاربين، فقد طلب إذناً من رئيس الكهنة ليقتفي أثر العدو المتقهقر إلى العاصمة السورية، كان غضبه يتمثل في الطريقة التي اتبعها لتنفيذ خطته بحرص، حيث كان مسلحاً بمستند للبحث والتفتيش، وقد بدأ رحلته كقائد ملتهب حماسة ومعه أمر بالقبض على الناصريين وإرجاعهم إلى أورشليم

لمحاكمتهم على هرطقتهم.

يذكرنا إيمرسون بأن «تاريخ الاضطهاد وهو سجل لمحاولات خداع الطبيعة، وجعل الماء يتجه إلى أعلى، فلا يمكن تلويث سمعة الشهيد. وعند معرفة الحقيقة يتم تبرير الشهداء وتكريمهم من قبل الأفراد والجماعات بعد إعمال العقل والتأمل». استعان اليهود الأرثوذكس بكل ما يحملونه من عداوة مريرة، بكل قوى السنهدريم ضد دفاع استفانوس الجريء، وعدم تهيب أولئك الذين اعتنقوا الإيمان المسيحي، ولكن ممثلهم – بولس، المضطهد الذي كان ينفث تهدداً وقتلاً والذي شهد لحظات الاستشهاد الرائع لاستفانوس كان عليه أن يؤمن بأن «دم الشهداء هو بذرة الكنيسة».

لم تتعرض قضية المسيحية لما هو أسوأ مما حدث في بداية رحلة بولس للقبض على المسيحيين الهاربين إلى دمشق. ولنا أن نتصور كيف ارتعب القديسون عندما سمعوا أن عدوهم اللدود كان في طريقه لتدميرهم والقضاء عليهم. ولكن، كما سنرى، «فالإنسان في التفكير – والرب في التدبير» لأنه على الرغم أن بولس وصل إلى دمشق، إلا أن الوثائق التي كان يحملها من قبل السلطات الدينية في أورشليم بالقبض على كل تابعي الناصري لم تستخدم. فالذي كان ينفث تهدداً وقتلاً وكان في طريقه لتنفيذ مهمة اضطهاد جديدة توقف فجأة عن تنفيذ تهديداته، لأنه في الطريق إلى دمشق حدثت معجزة لكاره القديسين هذا والمجدف المتعطش للدماء – ويالها من معجزة!

٣– تجديد بولس

بمجرد أن تجدد بولس بمعجزة عينه الرب، وأمره على الفور، كإناء مختار أن يحمل اسمه أمام اليهود، وكذلك أمام الأمم، واستمر هكذا يعمل لما يقرب من ثلاثين عاماً حتى سنة ٦٦م حيث يعتقد أن رأسه قطعت بأمر من نيرون في روما (أع ٩:٣–٨، ٤٦:١٣،١٥، ٢١:٢٢، غل ١:١، ٩،٨:٢). إن الفقرات الافتتاحية للدكتور ر.أ. ووايت في الفصل الذي كتبه عن التغيير المعجزي لبولس، فقرات معبرة وجديرة بالاقتباس.

«من بين آلاف حالات التجديد في التاريخ المسيحي، فإن هذه الحالة فقط، والخاصة بتجديد حياة بولس – يحتفل بها في يوم عيد معين في تقويم الكنيسة، ونظراً لأنها تحتل المرتبة التالية لميلاد وموت وقيامة يسوع ويوم الخمسين، فهي بالطبع أهم حدث في العهد الجديد، ولا شيء في التاريخ اللاحق للكنيسة يساويها في أهميتها لكل العصور وللعالم كله.

إن ذلك اللقاء الوجيز والمدهش أيضاً خارج دمشق قد أكسب يسوع أخلص تلاميذه، وأعظم رسله، وأوفى خدامه المخلصين. فقد أزال بضربة واحدة أقوى أعداء الكنيسة وأشدهم بطشاً. وقدم للمسيحية. أشجع أبطالها وأخلص كارزيها وأذكي قادتها وأعمق مفكريها وواحداً من أكثر قديسيها جاذبية

وأتاح هذا اللقاء التراث الفني لكتاباته للمشورة والتشجيع لكل القرون اللاحقة وهو يحدد بوضوح أكثر من أي تعليم، الغرض الرئيسي للإنجيل ومعناه، ويظهر بقوة لا مهرب منها القدرة الإلهية العاملة في المسيحية.

لم يكتب دفاع عن تجديد بولس أروع من هذه الصيغة التي جادت بها قريحة الدكتور وايت. دعنا الآن نحاول أن نفحص، بتدقيق أكثر، ما حدث في ذلك اليوم في الطريق إلى دمشق عندما تدخل الرب بطريقة دراماتيكية إلى جانب قطيعه الصغير المعتدي عليه بهجمات متكررة. كان ذلك اليوم من أخطر الأيام في تاريخ الكنيسة من جوانب عدة – وكان حدثاً بالغ الأهمية مما جعل الله يفرد له أربع روايات (أع ٩:٣–١٩، ٢٢:٦–٢١، ٢٦:١٢–١٨، غل ١:١١–١٧).

تختلف هذه الروايات اختلافاً طفيفاً في التفاصيل المصاحبة للظواهر، ولكنها تتفق في الجوهر فيما يتعلق بما رآه بولس، وبما سمعه وقاله، وعن علاقته التالية بحنانيا في دمشق. كانت ملابسات الحادث كما يلي:

كان بولس في الطريق إلى دمشق ومعه رسائل من رؤساء الكهنة في أورشليم لمعاقبة تابعي المسيح الذين يمكن أن يجدهم هناك. كانت الطرق التي كان عليه أن يسلكها لا تسمح له سوى بركوب الخيل - وهي رحلة تستغرق ستة أيام بالنسبة لبولس ورفاقه يخبرنا التقليد أنهم تعبوا كثيراً بسبب حرارة الشمس، والسفر في الصباح والمساء، حتى أصبحوا على مشارف دمشق، كان شاول مستريحاً وبمفرده عندما حدث شيء بغتة، ففي منتصف النهار، عندما كانت الشمس في أوج قوتها، أبرق حوله ضوء أشد لمعاناً من الشمس، وفي الحال سقط على الأرض وسمع صوتاً، واضحاً ومتميزاً يقول بلسان عبري: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» (أع ٩:٣،٤،٢٦:١٣،١٤).

قبل أن نتأمل في هذا الحدث الرائع نفسه، فقد يكون من المفيد أن نكتشف بعض العناصر في إعداد شاول لمثل هذا التغيير الدرامي في الحياة والشخصية، كان ظهور المسيح المجيد للمضطهد وتغييره الكامل، مفاجئاً وفورياً، وفي لمح البصر حدثت معجزة التغيير. ولكن كانت هناك طرقات سابقة على قلب شاول القاسي مما ساعد على سرعة تكيفه مع الضربة الأخيرة التي نجحت في ترويضه. وعندما تقابلا أخيراً وجهاً لوجه، قال يسوع لشاول: «صعب عليك أن ترفس مناخس» (أع ٩:٥).

لما كان شاول ملماً بالشعراء اليونان كنتيجة للتعليم الذي تلقاه في مدارس طرسوس فلابد أنه فهم مغزى الإيضاح الذي أورده ربنا. قال واحد من الشعراء: «مقاومة قوة أعظم من قوتك تجربة غير مجدية وخطرة» هناك مثل يوناني يقول: «لا تقاوم الله».

ما هي المناخس التي كان يرفسها شاول، التحذيرات، والانذارات والدلائل التي كان متهماً بمقاومتها وتحديها؟

خلاص برنابا، صديقه ورفيق شبابه

العلاقة وثيقة بين بولس وبرنابا يبدو أنها توحي بأنه كانت هناك صحبة سابقة (أع ٩:٢٧، ١١:٢٥). يقول إليكوت: من المرجح أن برنابا ترك قبرص ليتعلم في مدارس طرسوس الشهيرة، والتقى بشاول أو تدرب معه في مقتبل حياته على صناعة الخيام - وهي حرفة اشتغلا بها سوياً فيما بعد (١كو ٩:٦) ومن بين التقارير التي تلقاها شاول عن معتنقي العقيدة التي شرع في القضاء عليها، كان هناك تقرير عن تجديد برنابا، والطريقة التي تخلى بها عن جميع مقتنياته لأجل القديسين. ولابد أن مثل هذا التنازل قد نخس ضمير شاول الذي كان مصمماً على القضاء على هؤلاء الأتقياء.

حديث ونصيحة غمالائيل

(أع ٥:٣٣-٤٠)

بما أن شاول نشأ في مدرسة هذا العلاَّمة البارز في تاريخ معلمي اليهود، فلابد أنه قد تأثر، كعضو في السنهدريم، وهو يستمع إلى معلمه القديم مؤيداً تعليم العظة على الجبل في النصيحة التي قدمها للمجمع بشأن لا تفعلوا بالآخرين ما لا تريدون أن يفعلوه بكم. كان بطرس والرسل الآخرون (أع ٥:٢٩) أمام المجمع بسبب شهادتهم لموت وقيامة المسيح. وكان المجمع قد اتخذ قراراً بقتل هؤلاء الشهود الذين لا يخشون شيئاً. وكان يبدو من نغمة دفاع غمالائيل عن الرسل، أنه كان في صحبة عدد كبير من الرؤساء الذين آمنوا سراً بالمسيح، ولكنهم خافوا من الاعتراف به علانية (يو ١٢:٤٢،٤٣). ربما كان غمالائيل يفكر في تلميذه القديم وهو يخاطب المجمع، قاصداً أن

تكون كلماته التحذيرية قد اختيرت خصيصاً لكبح جماح غيرة شاول الملتهبة والمندفعة. هنا إذن منخس آخر «رفسه» شاول. وكان من نتيجة دفاع غمالائيل أن جلد الرسل وأطلق سراحهم، ولكنهم مضوا دون أن يكفوا عن التعليم والتبشير بيسوع المسيح.

دفاع وموت استفانوس

لابد أن استفانوس بوجهه الملائكي قد أزعج ضمير شاول عندما وقف أمام المجمع متهماً بالتجديف، لم يستطع شاول أن ينسى هذا الوجه، فالوجه الذي كساه المجد أقلق مضطهد القطيع الصغير. كان يكسو هذا الوجه بريق الغيرة المتقدة، وهدوء الحكمة النازلة من فوق، ولذا كان يشع بريقاً سماوياً وكان منخساً آخر حاول شاول جاهداً أن «يرفسه». ولم يغب عن شاول أيضاً روح البطولة لأولئك الذين تبعوا استفانوس حتى لحظة استشهاده، ومشاهدة الشهيد وهو يُرجم بوحشية حتى الموت، ورؤية كيف يموت القديس، أزعج شاول كثيراً، والعنف الذي أظهره ضد القديسين بعد ذلك المشهد الدموي لم يكن سوى رد الفعل تجاه هذا الإيمان المضحي المتسم بالأمانة، وهو دليل على أن ضمير شاول كان يزداد انزعاجاً.

كما أن الإنسان لا يضطهد الناس الذين لا يعرف شيئاً عنهم، فنحن متأكدون أن بولس قد عرف قدراً كبيراً عن الناصريين الذين أعجب سراً بنوعية حياتهم وسلوكهم، وشجاعتهم وتمتعهم بسلام داخلي في ساعة التجربة مما جعله يفكر تفكيراً أعمق في السيد الذي تألموا طواعية لأجله. رسم فنان أسباني بولس بجوار استفانوس في الطريق إلى الاستشهاد، وكانت هذه محاولة لإظهار العلاقة الوثيقة بين هذين الشخصين في تنمية حياة الكنيسة. لقد قرأنا عن العبرانيين القدامى الذين «كلما تعرضوا لمزيد من الاضطهاد تكاثروا وازدادوا عدداً». وبُعثت روح استفانوس من جديد في قلب عدوه الذي كان قد وافق على موته المريع. لقد دفن الله أحد فَعَلته الشجعان ولكنه واصل عمله. ربما حاول بولس أن يهرب من التذكر المزعج لنهاية استفانوس المريعة، ولكن صلاة الشهيد قد استجيبت بتجديد المضطهد الشاب الذي أمر بمواصلة مهمة استفانوس، وصيرورته رسولاً إلى الأمم.

ازدياد خيبة الأمل في الديانة اليهودية

مع أن بولس كان شديد الحساسية لمطالب الناموس، التي كان يستوفيها هو نفسه بكل تدقيق، إلا أن شكوكه تصاعدت بشأن إذا ما كان الناموس قادراً على خلاص إنسان تحت اللعنة (غل ٣: ١٠، في ٣: ٦). وبالتدريج دب فيه اليأس فيما يتعلق بإتمام مطالب الناموس. ومحاولته المستميتة لمحو المسيحية من الوجود لم تعكس سوى الإحساس بعدم الأمان الناتج عن الظنون والشكوك. وقد توصل إلى إثبات أن الالتزام الظاهري بمطالب الناموس وإتمام هذه المطالب عملياً ليسا شيئاً واحداً وأن ذلك لم يؤد إلى الانتصار وتحرير النفس (رو ٧: ٧) ولذلك، فإن حالته قبل تجديده، عندما أصر، كثور عنيد على أن يرفس مناخس، مما أدى إلى إيذائه لنفسه أكثر من أي شخص آخر، موصوفة بوضوح رائع في رسالته إلى أهل رومية (أع ٢٦: ١٤، رو٧).

وبالإضافة إلى يأسه من فاعلية الناموس، كان هناك الوعي المتزايد بحقيقة أقوال رجل الجليل. هناك سؤال مثير للجدل حول رؤية بولس ليسوع التاريخي. لقد ذكر أنه عرف المسيح «حسب الجسد» أي، من وجهة نظر بشرية (٢كو ٥: ١٦)، ويبدو أن الإشارات العديدة في رسائله إلى شخصية يسوع توحي أنه كان يحمل في ذهنه انطباعات مكتسبة من خلال الاحتكاك الشخصي بحياة يسوع على الأرض.

وهذا واضح تماماً، فقد تعلم الكثير عن يسوع أثناء إلقائه القبض على أتباعه. فقد استطاع أن يرى تطابق سلوكهم مع المطاليب الأخلاقية ليسوع الذي أعلنوا عنه أنه المسيا . يقول جون نوكس: « إن المسيح بدأ في الإعلان عن نفسه لبولس - ربما رغماً عن إرادة الأخير - بالروح القدس كالشخص المضطهد قبل أن يعلن عن نفسه في الاختيار الذي اجتاز فيه بولس عن طريق الرؤيا البصرية وما أعقبه من اختبار تجديده».

كتب س.أ ديسمان في كتابه «ديانة يسوع وإيمان بولس» يقول «إن نور دمشق الباهر لم يسلط على فراغ، بل وجد الكثير من المواد القابلة للاشتعال في نفس بولس» لذا نحن نؤكد بيقين يستند إلى المنطق أن التغيير الجذري الهائل الذي اختبره بولس والذي وصفه بأن الله قد سر بأن يعلن ابنه فيه، لم يكن دون إعداد ضخم من جانب السماء (غل ١:١٦)، ألم يعلن أن الله أفرزه للخدمة الرسولية من قبل أن يولد؟ (غل ١:١٥)؟ نتأمل الآن في التجديد المعجزي والمفاجيء. والذي كان إيذاناً بالمرحلة الأخيرة من عملية استغرق إعدادها وقتاً طويلاً. ما هي بعض جوانب الرؤيا التي نتج عنها دعوة بولس للخدمة الرسولية؟

تلقى بولس إعلاناً عن يسوع

لقد رأى بولس بالفعل يسوع الناصري المصلوب كالمسيح الحي. ومن مؤهلات الرسول أن يشهد بقيامة المسيح «شاهد معنا بقيامته» (أع ١:٢٢). وعندما ذكر إعلانه العظيم عن القيامة عدد كل من رأى بالفعل الشخص الذي هو حي إلى الأبد، وختم حديثه بالقول: «وآخر الكل... ظهر لي أنا» (١كو ٢:١، ١٥:٨). إن الصوت الداخلي الذي حاول بولس أن يسكته أصبح الآن مسموعاً ويتحدث، لا بتوبيخ بل برقة، وهو يردد اسم الشخص الأسير «شاول شاول لماذا تضطهدني؟». إن همسات ذلك الصوت المحتج الذي سمعه في الماضي يتردد الآن في عمق كيانه الداخلي ويطالب بسبب يبرر به إصراره على العداوة: يا له من حوار جرى بين الرب المقام وبين المضطهد، الذي فعل ما فعله بجهل في عدم إيمان!

يتضح من القصة أن بولس رأى هيئة يسوع كما سمع صوته، وأنه شهد فيما بعد لهيئته المنظورة (١كو ٩:١). لقد رآه بولس كما رآه استفانوس عندما قال: «ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله» (أع ٧:٥٦). عندما سمع بولس كلمات الشهيد هذه، اعتقد أنها كلمات تجديفية. وها هو الآن يرى يسوع في مجد الآب ماداً يده المنقذة، ليس كما فعل مع استفانوس ليقبل خادمه الذي كان أميناً معه، حتى الموت، بل استجابة لصلاة ذلك الضحية وهو يموت، ليغير شاول، الذي ارتضى بموته، ليكون على شاكلة ضحيته (أع ٧:٦٠). وهذه هي المعجزة التي حدثت في ذلك اليوم في الطريق إلى دمشق، كان ذلك التجديد المفاجيء أعظم حادثة تجديد عبر العصور من عدة جوانب. عندما نتأمل في حالة العصيان التي تنتاب العالم ومحبة الكنيسة اليوم نجد ذواتنا تصلي قائلة: «يارب، فلتفعل ذلك ثانيةً».

من اللافت للنظر أنه هنا فقط، أع ٩:٤، ١٧ استخدم يسوع الصيغة العبرية للاسم البنياميني شاول Shaul, Shaul، كما لو كان يقترح أنه نظراً لأنه يدرك أن شاول يفتخر أول ما يفتخر، بأنه عبراني من العبرانيين، والآن بعد أن سمع شاول النداء عليه من السماء بنفس هذا الاسم، كما نودي على صموئيل قديماً (١صم ٣:٤-١٨) كان عليه أن يقرر إن كان سيستمر في رفس المناخس أو يسلم، قائلاً مع صموئيل «تكلم يارب لأن عبدك سامع». ولأنه استجاب على الفور بإرادته لذلك الصوت السماوي، ولم يكن معانداً للرؤيا السماوية، فإن بولس أثرى العقيدة

المسيحية، كما لم يفعل إنسان آخر، بإثراء إرساليتها الإنجيلية المجيدة.

اعترف بولس بربوبية يسوع

أجاب بولس بهدوء على السؤال الموجه إليه من السماء «لماذا تضطهدني؟» بسؤال من عنده: «من أنت ياسيد؟» وقد أجيب على سؤاله على الفور: «أنا يسوع (الناصري) الذي أنت تضطهده» ثم بعد توقف قصير، وهدوء نفسي، ولمسة من الروح القدس بداخله (لأنه ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس ١كو ١٢:٣) أجاب بولس يارب ماذا تريد أن أفعل؟ السؤال الأول كان من؟ والثاني كان ماذا؟ وفي كل تجديد حقيقي تتبع الواحد الآخر، بعد أن قبل الناصري المحتقر كمخلصه وسيده كان عليه أن يذهب إلى دمشق لينتظر الأوامر الصادرة. لا شك أن ترديده للقب الرب كان رد الفعل الطبيعي للاحترام والرهبة بسبب كل ما رآه وما سمعه. ومع إعلان أكمل من الروح القدس، فهم بولس وأعلن ربوبية المسيح كما لم يفعل أي رسول آخر. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً عندما أعلن المسيح فيه (غل ١:١٦)، ولم يتردد أبداً في ولائه لربه.

فيما يتعلق بالحقيقة الرهيبة الخاصة بربوبية المسيح، يمكننا أن نلاحظ فرقاً بين إدراك بولس وإدراك الرسل الذين كانوا قبله في المسيح، فالاثنا عشر الذين رافقوا المسيح لما يقرب من ثلاث سنوات كان إدراكهم لربوبية المسيح متدرجاً. لم يكن من السهل عليهم أن يدركوا أن الشخص الذي كان نجاراً في الناصرة، هو رب المجد. وبسبب الألفة العميقة بين المسيح وخاصته، كان هناك بطء في الإيمان بربوبيته. كانت أعينهم ممسكة إلى حد ما، ولكنها انفتحت بالتدريج لتدرك إدراكاً كاملاً حقيقة معلمهم، ومهمته كالبديل النيابي عن عالم الخطاة الهالكين الساقطين.

أما بالنسبة لبولس فقد كان الأمر مختلفاً تماماً لأنه لم «يتحسس طريقه في الظلام من خلال تصورات مسبقة وفكر متحيز حتى يصل إلى إعلان كامل بالتدريج لقد تعلم فجأة عن طريق رؤيا مدهشة ببريق هائل أعمى عينيه ما تعلمه زملاؤه الرسل بعد كثير من التردد والحيرة وعدم الفهم. لقد أشرق لاهوت الرب عليه كما يشرق الصباح المجيد بعد ليلة ظلام دامس، واستطاع أن يفهم المعنى الأشمل والأعمق لموت المخلص وقيامته بسرعة وسعة إدراك لم تتح للباقين. وفي الحال عرف بولس يسوع كالرب، ونحن ندين له، أكثر من أي كاتب آخر من كُتَّاب العهد الجديد، بأكمل شرح لحقائق وأسرار ذاك الذي هو رب الكل (كو ١:١٥-١٩).

عرف بولس الوحدة القائمة بين المسيح وشعبه

يبدو ظاهرياً أن هناك تناقضاً بين القول «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب» وسؤال الرب لشاول «لماذا تضطهدني؟» (أع ٩:١،٤). لم يكن يسوع بين التلاميذ المضطهدين، ولم يواجه شاول يسوع شخصياً بأي نوع من التهديد والقتل. لذا فلابد أنه كان منزعجاً أن يسمع الصوت الهادىء من خلال النور الذي يعمي البصر يقول: «لماذا تضطهدني؟»

لقد أظهر يسوع لشاول بطريقة ليس فيها غموض توحده مع شعبه، وأن الجروح التي ألحقها بقديسيه كانت جروحاً تحملها هو. فلم يكن شاول يضطهد التلاميذ والأخوة فقط بل كان يضطهد ربهم أيضاً، لأن ما حدث لهم قد اعتبره شيئاً قد مسه أيضاً.

ألم يقل في أيام تجسده، بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم؟ وكون الكنيسة الحقيقية هي جسد المسيح، وأي خدمة تقدم لها، أو أي معاناة تتعرض لها، تعتبر كأنها موجهة لرأسها، كانت أول حقيقة

سامية تستحوذ على فكر شاول، وقد أضحت أحد الموضوعات العظيمة في كتاباته «كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة... كذلك المسيح أيضاً» (١كو ٦:١٥، ١٢-١٣، أف ٤:٢٥، ٥:٣٠).

تجديد بولس الرائع كان مثالاً

في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يستخدم بولس عبارة غريبة، فقد كتب يشبِّه نفسه بشخص وُلد في غير وقته (١كو ١٥:٨،٩) ويترجمها فيلبس «شخص ولد متأخراً عن وقته بشكل غير طبيعي» ويقول هامش الـ A.V سَقَط أي ميلاد في غير أوانه. يقرر الرسول بوضوح أنه يشير لما حدث عندما التقى به المسيح وخلصه، وربما قصد أنه لم يحصل على امتياز أن يكون بين مختاريه الأوائل من الرسل، فقد وُلد في غير أوانه. ولذلك كان أقل من الرسل الأوائل بهذا الصدد، وأنه لا يستحق أن يدعى رسولاً لأنه اضطهد الباقين.

هناك فكرة مشابهة موجودة في رسالته الأولى إلى تيموثاوس «ليظهر يسوع المسيح فيّ أنا أولاً كل أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (١تي ١:١٦) فإذا كان بولس «كأول الخطاة» قد خلص خلاصاً مجيداً عن طريق الفادي، إذن هناك رجاء لأي خاطيء آخر على استعداد أن يتوب ويؤمن. فلكل الخطاة، كان بولس مثالاً على طول أناة الرب وتحريره لأي خاطيء من قيود الخطية. في عصر النعمة هذا، لا يصح لأحد أن ييأس من البحث عن الرحمة إذا كان الله يستطيع أن يخلص إنساناً كشاول الطرسوسي، المضطهد والمجدف.

هناك دراسة مضنية لهذا الحدث الفاصل الخاص بتجديد بولس قام بها البرلماني لورد لتلتون، وصديقه المحامي جلبرت وست، وقد كانا كلاهما ملحدين لا يؤمنان بصحة الكتاب المقدس. ركز لتلتون على حادثة دمشق وركز وست على القيامة وكنتيجة لدراسة كل منهما المنفصلة عن دراسة الآخر تجدد كلاهما. كتب لتلتون في بحثه المنشور أن: «التأمل الجاد في تجديد بولس وإرساليته يعد دليلاً كافياً على أن المسيحية إعلان إلهي» ومنذ تجديد بولس الرائع فإن آلافاً لا حصر لهم من البشر قد اختبروا نفس القوة التي غيرت حياتهم في الحال، وكان ذلك الكاتب واحداً منهم.

كان الأمر يتطلب تغييراً هائلاً مفاجئاً للتأثير في رجل مثل شاول الطرسوسي الذي كان يمتلك «ذهناً صافياً»، وإرادة لا تلين، وهدفاً محدداً ودوراً ناجحاً، وضميراً لم يكن مثقلاً بوزر ذنب كبير ارتكبه، بل بالاحساس بواجب يؤديه، وواجب يتعايش معه، وواجب مستقبلي. كان شاول في حاجة إلى شيئين: تغيير كامل في الرأي فيما يتعلق بيسوع الناصري وإعلان جديد خاص به من الله، ليس كعبد مطيع، بل كخاطيء مغفورة له خطاياه.

وكان لابد للشيئين أن يسيرا جنباً إلى جنب، وكان الناصري المكروه هو طريق الاقتراب من الله القدوس.

٤- رسول من الله

بما أن الملابسات التالية لتسليم بولس حياته للمسيح معروفة جيداً، ليس هناك ما يدعو للإطالة فيها، ونحن لا نعرف ما حدث لرفاقه الذين أخرسهم النور السماوي والصوت الآتي من فوق. نهض بولس الراكع على ركبتيه مضروباً بالعمى واقتيد باليد إلى دمشق. ولكن على الرغم أنه قام من فوق التراب، أعمى وعاجزاً ومحطماً، إلا أنه كان إنساناً جديداً في المسيح يسوع. ولكن كان دخوله إلى أورشليم، مختلفاً تماماً عما كان يتوقعه، لقد كانت خطته أن يدخل إلى المدينة كالمضطهد الغيور لتابعي يسوع الناصري، ولكنه التقى بالرجل نفسه، وبعد أن اتضع وأخضع له، قضى الأيام الثلاثة الأوائل في دمشق، بلا رؤية

وبلا طعام (أع ٩:٩). ياله من تغيير للفريسي المتكبر الذي اعتاد أن يسجن القديسين! كان معتاداً أن يجعل الناصريين يرتعبون، ولكنه أصبح الآن هو نفسه ناصرياً!

علم حنانيا بقصة بولس وكان خائفاً منه، ولكن جاءه تأكيد سماوي بأن شاول القديم قد تغير تغييراً جذرياً، وأصبح صديقه ومستشاره. وفيما يتعلق بالقديسين الخائفين، فقد امتلأوا بالشجاعة، ومجدوا الله وهم يرون انقلاباً روحياً هائلاً يربح مثل هذا الكارز القوي للمخلص. ومع استعادة بصره ومعمودية الروح القدس، فقد شهد في المجمع في دمشق لإيمانه الجديد (أع ٩: ٢٠). كان على بولس أن يتعلم الكثير قبل أن يعمل كرسول، ويتضح ذلك من حقيقة أنه ذهب إلى العربية ثم عاد إلى دمشق مرة أخرى ليكمل شهادته. وحيث أن العديد من الكتاب قد ركزوا على زيارة بولس إلى العربية، فقد أكدوا أنه كما كانت هناك «سنوات صامتة» في حياة يسوع، هكذا كانت هناك «سنوات صامتة» في حياة بولس، لذا دعنا نفحص ما قاله بولس بنفسه بالضبط عن هذه الزيارة.

من المدهش، أنه لم يقل أنه كان في العربية لمدة ثلاث سنوات، ولم يسجل سبب زيارته إليها، ولا طول المدة التي مكثها هناك. يمكننا أن نعترض أن رحلته إلى هناك كانت للتأمل في المهمة الكبرى الموكلة إليه، ولتشكيل الرسالة التي دعاه الله للقيام بها. عاد بولس إلى دمشق من العربية، وبعد مدة من الزمن ذهب إلى أورشليم، «ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس» (غل ١: ١٧، ١٨). هذه العبارة تعني ببساطة أنه بعد غياب ثلاث سنوات عن أورشليم، عاد إليها كان قد ترك المدينة محملاً بثلاث رسائل من رئيس الكهنة ليقبض على المسيحيين في دمشق، والآن، بعد ثلاث سنوات، يعود إليها ثانية. فالمدة المذكورة إذن، يجب أن تحتسب من وقت نقطة التحول الكبرى في حياة بولس – تجديده – ولا يجب أن تعتبر أنها تعادل المدة التي قضاها في العربية.

وعند عودة بولس إلى أورشليم، قضى ١٥ يوماً في صحبة بطرس ويعقوب (غل ١: ١٨، ١٩)، ثم حاول – دون جدوى – أن يجتذب معلمي اليهود إلى معتقده الجديد، وما حدث في السنوات القليلة التالية ليس واضحاً تماماً. من الواضح أنه تمت الكرازة لسوريا وكيليكيا (غل ١: ٢١)، ثم حدثت الكرازة الرائعة لأنطاكية، حيث دعي التلاميذ مسيحيين أولاً، وانطلاقاً من هناك بدأ بولس القيام بمهمته المجيدة كالرسول إلى عالم الأمم (أع ١١: ٢٥، ٢٦، ١٣: ١–٤)، بعد أن أصبح، كما يصفه الدكتور وايت، الرسول الفائق.

عندما نتذكر الخدمة المدهشة لبولس والذي كان مؤهلاً بتفوق، بالمولد، والتعليم والخبرة السابقة، لأن يتبوأ هذه المكانة المتميزة لتأسيس وامتداد وتنوير الكنيسة، لا يسعنا سوى أن نخصص له المقعد الأول في «جماعة الرسل المجيدة». أما فيما يتعلق بكونه رسولاً، فلم يكن لدي بولس أي شك بشأن ذلك، فقد كان جازماً في دعواه، ولم يسمح أبداً بأي تحد دون إعادة تأكيد ذلك بكل قوة وحماس. تعرض هذا اللقب الرسولي لهجوم عنيف، وقد دافع عنه بنجاح على أساس مزدوج، فعلى الرغم أنه لم يرافق يسوع في أيام تجسده، إلا أنه قد رآه بعد تمجيده (١كو ٩: ١) ومع أنه لم يكن في الأصل من الاثني عشر، إلا أن الرب صادق على رسوليته (٢كو ١٢: ١٢). يدعو بولس نفسه رسولاً ١٩ مرة، ويدافع عن دعواه بهذا الصدد (١كو ٩: ١–٦، ٢كو ١٢).

كان تذكر بولس لعداوته السابقة للمسيح وتلاميذه يشعره بضآلته، فكان يقر بكل تواضع أنه أصغر الرسل وليس مستحقاً أن يدعى رسولاً، ولكن عندما كان الشك

يلقي بظلال على دعوته ليكون رسولاً كان هناك دائماً، «الرد بنيل المكانة والثقة الوطيدة» حيث كان يؤكد أنه لا يقل مثقال ذرة عن أفضل الرسل. وعلى الرغم أنه اختير بعد كل الباقين، إلا أنه «في الأتعاب أكثر» كان بولس ذلك الشخص الذي ولد في وقت غير ملائم ليمارس مقدرة روحية أعظم من الآخرين من الرسل. كان الرسل الأصليون يتشاجرون «في من يكون الأعظم»... ولكن مثل هذا الشرف كان محجوزاً لبولس «المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله» (رو ١:١،٥).

٥- رسول الأمم

الشخصيتان المحوريتان في سفر الأعمال هما بطرس، وبولس، في الأصحاحات من ١-١٢ نرى بطرس في مكان الصدارة «كمرسل إلى اليهود» ومن أصحاح ١٣ حتى آخر السفر، نرى بولس بارزاً «كرسول إلى الأمم». إن بولس كعبراني من العبرانيين، كانت له رغبة قوية ليربح أنسباءه حسب الجسد للمسيح، ولكنهم رفضوا شهادته، ولذا حدثت القطيعة عندما قال لبرنابا رفيقه: «هوذا نتوجه إلى الأمم» وخرج ليأتي بجماهير غفيرة من غير اليهود إلى المخلص الذي مات لأجل اليهود والأمم على السواء (أع ١٣:٤٦-٥٢، ٢١:٢، غل ٢:٨،٩).

كم كانت الدائرة التي كرز لها بولس واسعة وممتدة، وكم كان بولس مثالاً عظيماً لكل رابحي النفوس في إنكار الذات والتقوى المسيحية! نحن نجد بولس يعمل في سلوقية وقبرص وبمفيلية وبيسيدية وليكأونية (أع ١٣ . ١٤). ثم جاءت الدعوة من مكدونية، وهكذا ذهب إلى أوروبا (أع ١٦). تم توصيل الرسالة إلى تسالونيكي، وبيرية وأثينا، وكورنثوس، وأفسس، وغلاطية، وروما، وكان بولس يعلم أن وثقاً وشدائد تنتظره في كل خطوة يخطوها. ما الذي يسعنا أن نفعله سوى أن نقدر حماس تلك المحبة للمسيح التي كانت تحصره ليخدم سيده بكل هذه التضحية!

لا يمكن إعطاء بولس حقه من الإشادة بتأثير رحلاته العظيمة الثلاث على تاريخ البشرية كان الوقت الذي استغرقته هذه الرحلات ما يقرب من عشر سنوات، والمسافة التي قطعت كانت تبلغ ٨,١٠٠ ميل - وهي ليست مسافة كبيرة في هذه الأيام حيث توجد الطائرات النفاثة، ولكنها كانت هائلة في تلك الأيام حيث لم يكن لديهم طائرات، أو سيارات أو قطارات، أو سفن سريعة تبحر عباب البحر. ظل الرسول يعمل هكذا لما يقرب من ٣٠ سنة، حتى، كما يعتقد عموماً، قطعت رأسه بأمر من نيرون إمبراطور روما، في حوالي ٦٦م. جاب أعظم رسول عالمي كل العالم الروماني القديم وقتئذ وقيل إنه «حتى قبل تجديده كان يرغب بولس لا أن يكون معلماً فقط بل مرسلاً، ليكرس حياته لانتشار البر الحقيقي، وللإطاحة بكل ما يعوق تقدمه، وبكل ما يعوق الناس عن تسليم أنفسهم كأفراد لممارسة شعائر الناموس».

وكنتيجة للمعجزة التي حدثت في تلك الظهيرة في الطريق إلى دمشق، فإن هذه الرغبة ليكون مرسلاً لم تنطفيء جذوتها بل حدث تحول في اتجاهها، وتقدست وازدادت حدة.

وهكذا أرسى بولس لكل العصور مباديء الخدمة الرسولية المثمرة، بحياته وعمله وتعليمه وقدوته. وكما يعبر ج. أزووالد ساندرز عن ذلك فيقول: «لقد اقترب بولس من النمط الإلهي أكثر من أي رسول آخر شهده العالم. فقد استخدمه المسيح كأداة لامتداد ملكوته، فتح المرسلون الآخرون قارة للإنجيل، ولكن بولس فتح عالماً بأسره». كان بولس يعتقد اعتقاداً جازماً أن لديه إنجيلاً لكل العالم، وقد كان هدفه الأسمى ورغبة قلبه أن يجعله معروفاً، سواء لليهود أو للأمم. لقد كان بحق إناء مختاراً للرب (أع ٩:١٥، ٢٢:٢١).

كان بولس، مثل الله الذي كان يخدمه، لا يحابي بالوجوه، كان لكل أنواع البشر نصيب في وقته ومواهبه، وكمدين للجميع، قد وفى بالتزاماته بأمانة (رو١:١٤-١٦).

كان ممتلئاً حماساً لتقديم رسالة الفداء للجميع، وكان فخوراً أن يكرز بها على الدوام. كان يسعى بكل وسيلة لخلاص كل البشر، فقد عاش ومات لهذا الغرض. وكما مات المسيح لأجل بولس، هكذا كان بولس يتألم ويموت كل يوم حتى يأتي بالخطاة إلى الصليب ولكل من لديه رغبة ليخدم المخلص. يشير بولس لمحبته القوية للنفوس ويقول: «كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو ١١:١).

عندما تتبع بولس من بلد إلى بلد (رو ١٥:١٩) لاحظ كيف تألم لأجل المسيح في مهامه الرسولية. هاك قائمة للتأمل فيها مع كتابك المقدس المفتوح.

تحمل كل المصاعب، ومواجهة أقصى درجات الخطر (٢كو ١١:٢٣-٢٧). الاعتداء عليه من قبل الجمهور، والعقاب من قبل الولاة (أع ١٦:١٩-٢٤، ٢١:٢٧). الجلد، والضرب، والرجم، ثم تركه لاعتقادهم أنه مات (أع ١٤:١٩-٢٠). كان يتوقع حيثما ذهب، تكرار نفس المعاملة ونفس الأخطار (أع ٢٠:٢٣). ولما كان يطرد من مدينة، كان يكرز في الأخرى (أع ١٣:٥٠،٥١، ١٤:٥-٧، ١٩-٢١). وإذا كان يقضي كل وقته في العمل المرسلي كان يضحي بكل متعة، وراحة وأمن (أع ٢٠:٢٤، رو ١:١٤،١٥، في ١:٢٠، ٣:٨). استمر مثابراً في السعي حتى كبر السن، دون أن يعوقه أي فساد أو عناد (أع ٢٨:١٧)، أو عدم امتنان (غل ١:٦، ٤:١٤-٢٠) أو حقد (٢كو ١٢:١٥) أو هجر (٢تي ٤:١، ١٦). لم يستسلم للقلق، والحاجة، والإجهاد أو الاضطهاد. ولم ينهكه الحبس لمدة طويلة، ولم يرعبه الموت (أع ٢١:١٣، ٢ كو ١٢:١٠، في ٢:١٧، ٤:١٨، ٢تي ٤:١٧).

عند تجديده، حذر بولس من الأشياء الكثيرة التي كان عليه أن يعاني منها لأجل المسيح (أع ٩:١٦). وعندما بدأ يتألم لم يتنهد أو يشكو بل كان يفخر بتجاربه وكان أكثر افتخاراً بالجروح والندوب بسبب المعارك التي يخوضها من افتخار الجندي بأوسمته ونياشينه (غل ٦:١٧). ياله من مرسل مقاتل! فلم ير العالم مثيلاً له.

٦- أسير الرب

هناك جانب معين خاص بآلام بولس لأجل السيد يتعلق بتجارب سجنه. قبل تجديده، كان بولس يحاول أن يقضي على الكنيسة، وكان يسطو على بيوت القديسين، ويأخذ الرجال والنساء ويودعهم في السجن (أع ٨:٣، ٢٦:١٠). ولكنه أخذ يحصد مازرع - ومع ذلك لم يعتقد في نفسه أنه أسير لأي سلطة، بل كان يعتقد دائماً أنه «أسير يسوع المسيح». قرب ختام خدمة المعلم، سأل اثنين من تلاميذه: «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟» (مت ٢٠:٢٢). لم يكن بولس مع التلميذين اللذين سمعا هذا السؤال، ومع ذلك فقد أصبح التجسيد الحقيقي لتلمذة التضحية بالذات والتي يرمز إليها بالكأس والصبغة باللون القاني (لون الدم) ولذا فقد تمثل بالمسيح تماماً واختبر «شركة آلامه» (في ٣:١٠)، حتى أنه منذ لحظة تجديده إلى لحظة موته، بعد ٣٠ سنة، كان يجد الحياة والحرية فقط في كونه «عبداً للمسيح» أو «أسير الرب» الذي سيطر حبه على كل نشاط يقوم به وجعله يصمم على ألا يعيش فيما بعد لنفسه بل فقط لأجل ذاك الذي لأجله «مات وقام» (٢كو ٥:١٤-١٥، غل ٩).

يخبرنا بولس أنه كان «في سجون كثيرة» (٢كو ٦:٤،٥، ١١:٢٣-٢٧). وسجوننا الحديثة تعد قصوراً بالنسبة للسجون التي تألم فيها. ومع ذلك فقد تحمل كل

شيء بلا تذمر. كانت تجربته عن السجون تجربة شاملة، حيث كانت تتراوح فيما بين النوع المعتدل من الاحتجاز الذي اختبره في روما (أع ٢٨:٣٠)، وقسوة «السجن الداخلي» في فيلبي (أع ١٦:٢٤)، والأهوال الأخيرة للزنازين في روما. ومع ذلك، فلم يكن الرسول ينظر إلى أهوال سجنه كمصائب، بل كفرص سمح بها الرب لامتداد ملكوته. ولهذا السبب فهو يشير إلى نفسه لا كسجين نيرون في سلاسل، بل كسفير (السماء) في سلاسل (أف ٦:٢٠).

كانت قيوده هي «قيود الإنجيل» (فليمون ١٣). وكلما تحدث عن سجنه، لم يكن يتحدث بلغة الانكسار، بل كانت تجربة يفخر بها.

عندما يتحدث بولس عن القيود، فهو بالطبع يعني «السلاسل» وهي توضح الطريقة الرومانية في تقييد المساجين (أع ١٢:٧). كان طرف السلسلة ذات الطول المريح، تثبت حول الذراع الأيمن للسجين، ويثبت الطرف الآخر حول الذراع الأيسر للجندي، وهكذا كان الجندي مرتبطاً بالسجين، وكان يذهب معه أينما ذهب هكذا كان يحرس بولس.

قدم بولس دفاعه أمام فستوس وأغريباس وبرنيكي وهو مقيد بهذه الطريقة وكان هذا الظرف هو السبب في إلقاء بولس لأكثر الكلمات البليغة تأثيراً وإثارة للعواطف، «كنت أصلي إلى الله أنه بقليل وبكثير ليس أنت فقط بل أيضاً جميع الذين يسمعونني اليوم يصيرون هكذا كما أنا ما خلا هذه القيود» (أع ٢٦:٢٩). وعندما حدثت الزلزلة العظيمة التي هزت أساسات السجن الذي ألقى فيه بولس وسيلا، فإن ما أزعج الحارس واقتاده للتفكير في الانتحار، كان رؤيته لقيود المساجين وهي تنفك، وقد ظن أن الجميع قد هربوا (أع ١٦:٢٦،٢٧).

كم أعطت هذه السلاسل لبولس العديد من الفرص الرائعة فاستطاع برغبته الجارفة في ربح الضالين أن يستغلها استغلالاً تاماً! ونظراً للتغيير الدوري للحراس الذي كان مقيداً بهم، تأمل كم من الجنود استمعوا لشهادته، وكم عدد الذين اقتادهم إلى المخلص. لقد أتاحت له تلك القيود فرصاً دائمة للشهادة وما الذي كان الجنود باستطاعتهم أن يفعلوه سوى أن ينصتوا؟

أليس هناك شيء مؤثر في الطريقة التي يبدأ بها بولس رسالته إلى فليمون؟ إنه لم يستخدم لقب الرسول الدال على السلطان في دفاعه لعودة أنسيمس، العبد الهارب، بل استخدم لفظ السجين. إنه لم يأمر ولكن لأجل المحبة توسل لفليمون أن يقبل عبده غير النافع. وعلى الرغم أن بولس كان يركز عادة على فترات حبسه كأساس لتقديم الشكر والامتنان، فها هو يستخدم سجنه كسبب لاستدرار العطف. ومع أنه لم يكن سوى في الستين من عمره في ذلك الوقت، إلا أنه يكتب «كبولس الشيخ» بمعنى أنه قد أصبح مسناً قبل الأوان بعد حياة من العمل الشاق والألم لأجل المسيح. كان ضعفه راجعاً لكبر السن الناتج عن الألم بسبب القيود (أف ٣:١-١٣، ٤:١، ٦:٢٠، في ١:١٢-٢٠، كو ٤:١٨).

بالإضافة إلى ذلك، ظل بولس شاهداً أو سفيراً، على الرغم أنه كان مقيداً، كما يثبت تجديد أنسيمس. ويتحدث الرسول عنه بالقول «ابني انسيمس الذي ولدته في قيودي» (فليمون ١٠) وهكذا فإن عوائق وصعاب السجن لم تمنع بولس من مواصلة خدمة ربح النفوس الرائعة.

على الرغم من قيود بولس وسوء معاملته، إلا أن نفسه كانت حرة، واستطاع أن يصلي وينشد تسابيح الحمد لله، حتى وإن تعرض للضرب وقد قيدت رجلاه في المقطرة في منتصف الليل (أع ١٦:٢٣). فلا عجب أن اندهش المسجونون الآخرون لمثل هذه اللامبالاة تجاه الألم!

وإذا كان يدرك أن ربه العزيز كان معه وهو في الأسر، فقد اعتبر بولس سجنه مكاناً مقدساً، عالماً أن القسوة التي تحملها كانت بمثابة طلبة ترفع إلى الله لتزكية «أسيره» والدفاع عنه. نحن نلقي النظرة الأخيرة على الرسول وهو في السجن «ينتظر الاستشهاد بسبب إحدى النوبات الجنونية لنيرون». ولكن بولس كانت له مرساة ثابتة ومؤتمنة داخل إيمانه بفاديه ومخلصه.

حيث أنه يبدو أن إشارة بولس لدنو وقت رحيله من هذه الحياة قد كتبت بينما كان مسجوناً في روما، منتظراً الاستشهاد (٢تي ٤:٦-٨)، هناك شيء مؤثر في طلبه من الشاب تيموثاوس أن يسرع إليه بالرداء الذي كان قد تركه في ترواس، ليمنحه الدفء في برودة السجن الرطب وهو ينتظر هناك في صحة ضعيفة وجسد محطم. ثم رجا تيموثاوس أن يحضر له كتبه، وعلى الأرجح فهي عدد قليل من الكتب المفضلة لديه عن التاريخ اليهودي، والشعر، «ولا سيما الرقوق». ومن المحتمل أن هذه كانت أوراقه الثمينة التي تحتوي على ملاحظات دوّنها على الأسفار المقدسة. وحيث أن هذه الملاحظات كانت نتاج سنوات طويلة من القراءة والدراسة، فقد أراد أن يطلع عليها مرة أخرى طالما كان في العمر بقية. يقول تراب Trapp إن هذه الرقوق المصنوعة من «جلود الحيوانات كانت كراسات من صنعه وتجميعه. يقول إرازمس معلقاً على الطلبات التي طلبها بولس في السجن: «لاحظ أن متعلقات الرسول أشياء منقولة: عباءة رخيصة الثمن لتحميه من برد الشتاء وعدد قليل من الكتب».

مع أن الرســـول يواجــه الموت، إلا أنه يحب العناية بالجسم والروح. فلم تستطع السجون أن تحول بينه وبين التثقيف الروحي والعقلي. هناك حالة شبيهة لحالة بولس نجدها في طلب الشهيد تندل الذي بينما كان في سجنه في «فيلرود» طلب ملابس ثقيلة وكتابه المقدس العبري، وكتاب قواعد اللغة والقاموس «حتى أقضي وقتي في الدراسة». ولذا، فقد كان تندل مثل بولس تلميذاً حتى النهاية. دؤوباً على الحصول على المعرفة حتى وهو على حافة الموت. وأي واعظ أو طالب يكون غبياً إذا اعتقد أنه قد أحرز تقدماً بما فيه الكفاية لدرجة أنه ليس مضطراً للمثابرة حتى النهاية.

هناك جانب آخر يتعلق بمقدرة بولس على تحويل السجن إلى مكان مقدس من حيث طريقة إرساله ما عرف «برسائل السجن» إلى أهل أفسس، وكولوسي، وفيلبي وإلى تيموثاوس، وتيطس وفليمون. كم تعد الكنيسة مدينة للرسول لأجل هذه الرسائل المذهلة، والمكتوبة تحت ضغط الكثير من المعاناة. ولكنها ساعدت الكنيسة كثيراً في تشكيل المسيحية، ومازالت تشكل حياة القديسين! استطاع جون بنيان أن يدعو سجن بدفورد المختلي الخاص به حيث كان يتأمل ويكتب كتابه الخالد «سياحة المسيحي» وفي سجنه في جزيرة بطمس تلقى الرسول يوحنا «إعلان يسوع المسيح» وقدمه إلى العالم.

٧- أمير الوعاظ

أي واعظ يرغب في إثارة مستمعيه بسلسلة من رسائل بولس، الرسول القوي: وباني الكنيسة، يجب أن يملأ عقله بالـ ١٦ فصلاً التي يقدمها لنا الكسندر وايت في كتابه «شخصيات كتابية» كخلفية لدراسته الخاصة، سوف يجد نفسه يطيل التأمل في الفصول التي تتحدث عن:

بولس كواعظ

بولس كراع

بولس كخادم بلا لوم

هناك عبارات في الفصل الذي كتبه وايت عن: «بولس كواعظ» تجذب انتباه القارئ وتشده.

«يكشف بولس عن كل الأسرار الدفينة في ضمائرنا، وكل الفساد المخفي في قلوبنا، حتى يصبح واعظ الوعاظ لنا...

يقول مارتن لوثر: «هو وحده الخادم المصيب» الذي يستطيع أن يكرز بإيمان ابن الله بطريقة صحيحة. يقول المصلح: «هو وحده» الواعظ المناسب الذي يستطيع أن يتعرف أولاً لنفسه ثم لشعبه، على الإيمان من الناموس، والنعمة من الأعمال كان بولس خادماً مناسباً وكان أول أب والرائد لجميع الخدام...

ليت هذه العبارة تكتب على قبري «تعالوا وانظروا، يا كل العابرين، لأنه يرقد هنا خادم مناسب».

لماذا لا نقرأ كلمة المناسب هذه سوى في الأحوال النادرة على مقابر خدامنا؟ لماذا لا يوجد من الخدام سوى العدد القليل الذي يشبع قلب بولس ولوثر؟»

نرى بولس لأول مرة بعد تجديده الرائع ككارز – «وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله» (أع ٩:٢٠). ويعطينا لوقا المشهد الأخير عنه ككارز أيضاً، لأن العدد الأخير من سفر أعمال الرسل يقول: «كارزاً بملكوت الله ومعلماً بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع» (٢٨:٣١). ليس هناك ختام لسفر أعمال الرسل لأنه بحياته وعمله ورسائله فإن بولس مازال يكرز.

وكما نعلم فإن رسائل بولس مشبعة بلفظ «يكرز» ومرادفاته «اكرز بالكلمة» «اكرز بالمسيح وإياه مصلوباً» اكرز بالإنجيل «بشر بالإيمان» هذه هي العبارات الأساسية للرسول لواعظينا اليوم. فالمحبة للمسيح ولنفوس البشر كانت الشغل الشاغل لبولس والهدف الذي كان يوجه كيانه كله (٢كو ٥:١٤). حتى أصبح مبشراً يسيطر عليه المسيح، له رغبة قوية سامية أن يكرز به إلى الأمم (١كو ٩:١٦) هكذا كانت قوة تبشيره حتى إن الذين كانوا يخرجون الأرواح النجسة في أفسس استخدموا هذه التعويذة «نقسم عليك بيسوع الذي يكرز به بولس».

والعناصر التي جعلت كرازة بولس قوية هي التأنيب والتوبيخ والنصيحة بكل طول أناة مع التعليم (٢تي ٤:٢). كان يعلم أنه ليس في بلاغة أبلوس، ولذا فلم يزعم أنه فصيح اللسان: «إليكم أيها الأخوة أتيت ليس بسمو الكلام» (١كو ٢:١). وكان يمقت الكبرياء والثقة الزائدة بالنفس في الكرازة: «وأنا كنت عندكم (كارزا) في ضعف وخوف ورعدة كثيرة» (١كو ٢:٣). ولم تكن كرازته بكلام الحكمة الإنسانية المقنع (١كو ٢:٤)، بل ببرهان الروح والقوة.

وكدارس جيد لعلم الوعظ، عرف بولس كيف ينوع في طريقة كرازته. هناك كلمة تستخدم كثيراً في أقوال بولس العامة وهي الكلمة «يحاج» (أي يقنع بالحجة والمنطق) (أع ١٧:١٢، ١٨:٤، ١٩). لم يكن مفكراً جباناً. كانت لديه اقتناعات واضحة وكان مستعداً بهذه الفطنة العقلية الملحوظة لديه أن يواجه أي جدل. ومع ذلك فكم كان وعظه مقنعاً، مليئاً بالمحبة والغيرة. عرف كيف يحذر سامعيه «بدموع». لم يكن بولس كارزاً يعاني من الجمود والرتابة. وكون بولس كان يراعي ضرورة التنويع في وعظه نراه في كيفية تكييف رسالته لتلائم سامعيه، دون التخلي عن مبادئه بأي حال من الأحوال.

كما يقول ج. أوزوالد ساندرز:

«وكان بولس بالمثل يستطيع التناغم مع الحكام الرومان، والأساتذة اليونان، والموظفين الآسيويين أو اللاهوتيين العبرانيين. كان بإمكانه أن يكيف نفسه مع المحافل اليهودية في المجامع، والأساتذة اليونان في الأكروبول، والجماهير الوثنية في لسترة أو مع رجال البلاط الملكي كما حدث عند ما ظهر أمام فستوس».

لقد قيل إن «الكارز الحقيقي يمكن معرفته بهذه

الوسيلة، إنه يقدم للناس حياته وهي حياة قد أثبتت نجاحاً لأنها اجتازت في نيران الفكر». كان بولس مثالاً لهذا الكارز لأن بولس عاش ليكرز، وعاش بما كان يكرز به. كم كان يمكن للمسيحية أن تنهض نهضة حقيقية في عالمنا المجنون لو أن كل المنابر اعتلاها مجموعة من الوعاظ مثل بولس الواعظ الذي لم يكن يحول نظره أبداً عن الهدف الذي كان أمامه.

٨- كاتب ذو شهرة

من الملامح المميزة للعهد الجديد أنه من بين الـ٢٧ سفراً التي يحتويها، هناك ١٤ سفراً - إذا أضفنا إليها الرسالة إلى العبرانيين - كان مصدرها الذهن اللماح، والقلم المُلْهَم بالروح للقديس بولس، كم تحوي تلك الرسائل التي لا مثيل لها عديداً من الأفكار اللاهوتية والبحوث المتعلقة بالحياة المسيحية. وهي لا تباري في مجال الأدب.

ومنذ أن كتب الرسول بولس هذه الرسائل - وأرسلها إلى الكنائس والأشخاص - كتبت أعداد لا حصر لها من التعليقات وكتب الدراسة والتفاسير عنها. ولو استطاع أحد أن يعد كل الكتب التي نشرت عبر القرون عن الأعمال الأدبية لبولس، لكان الرقم مهولاً.

لاشك أن رسائل بولس مصدر أساسي ذو أهمية قصوى، لأنها كتبت بتلقائية، وشجاعة، وصراحة لا تكشف فقط عن شخصيته بكل ما فيها من عمق وثراء وتنوع ولكنها أيضاً أول مصدر واضح المعالم، وعميق وبسيط في نفس الوقت، للاهوت الحياة المسيحية. يقول ج.أديسمان في مؤلفه الخالد عن بولس «دراسة في التاريخ الاجتماعي والديني» إن «كل رسالة صورة لبولس، وهنا تكمن القيمة الفريدة للرسائل كمصادر لقصة تاريخية عن هذا الكاتب، ونحن لا يتوفر لدينا مثل هذه المصادر المعلوماتية غير المتعمدة تماماً عن تفاصيل الحياة سوى لعدد قليل من مسيحيي الأيام اللاحقة لعصر بولس».

من السمات البالغة الأهمية لهذه الرسائل تأثير بولس كمعلم روحي وأخلاقي، لأنه وفقاً لفكره، فالدين والأخلاق، أو الإيمان والأعمال وجهان لعملة واحدة، ولذلك فهو لم يفصل أبداً القيم الأخلاقية عن مصادرها اللاهوتية. والهدف من المثل الأخلاقية لديه كان دائماً شيء واحد، أن يتصور المسيح فينا (رو ٨:٢٩، غل ٤:١٩).

والنمط الأخلاقي لديه موجود في إرادة الله والذي تحدث عنه «كناموس الله» وناموس المسيح (رو ٧:٢٢، ١كو ٩:٢١). بالنسبة لبولس، تعد «العيشة المسيحية دائماً نتاجاً للتعاليم المسيحية الحقيقية، والثمار الأخلاقية لها أصول لاهوتية».

ما تدين به المسيحية والعالم لرسائل بولس لا يمكن أبدا الإحاطة به، ليس فقط بسبب تصويرها لشخصيته الفريدة، وسردها لأحوال الكنيسة الأولى وتأثيرها عليها، ولكن أيضاً لحقائقها الثابتة والتي مازالت تغير حياة البشر. إن الإيمان المسيحي والممارسة المسيحية المعلنان فيها، قد اسهما في بناء الكنائس وإضافة أعداد لا حصر لها إلى سجل القديسين. فبإرشاد الله، استطاع بولس في كتاباته أن يترجم المسيحية إلى العالم، وما لا يجب أن ننساه عندما نفكر في القيمة التي لا تقدر للرسائل التي أوحى إلى الرسول بكتابتها، حقيقة أن بولس هو الذي بدأ في كتابة العهد الجديد، قبل أن توجد الأناجيل الأربعة، أو أي كتاب آخر فيه بعدة سنوات. كان بولس قد أرسل رسائله إلى أهل تسالونيكي وأهل كورنثوس، وأهل غلاطية، وأهل رومية. كانت هذه الرسائل الست أول رسائله وكونت بدايات العهد الجديد الرائع. لقد كُتبت بيد بولس ليس عندما كان قوياً موفور الصحة، بل عندما كان كسيراً، ضعيفاً، متألماً، ومن المرجح معوقاً بسبب مشكلة في عينيه، وكان طبيبه لوقا يشرف على علاجه.

وكالمفسر لحقيقة المسيح والتعليم المسيحي كما هو موجود في أعماله الأدبية، يقف بولس، كما وقف دائماً، بلا منافس كأعظم مفسر لسر التجسد وحقائق الفداء. إن كلماته في المرتبة التالية لكلمات مخلصنا كانت ومازالت أثمن كنوز القلب المسيحي. يوضح ماكنايت Macknight في مؤلفه «مقالات تمهيدية» أنه: «على الرغم من أن الرسائل الملهمة للرسل الآخرين تستحق أن تُقرأ بكل اهتمام، بقصد تفسير التعاليم المعينة والحقائق التي تحتويها، والأفكار الممتازة عن التقوى والأخلاق التي تزخر بها، إلا أن رسائل بولس يجب أن ينظر إليها كمستودع ضخم محفوظ فيه كل تعاليم الإنجيل، وتستمد منه المعرفة بأقصى قدر من الفائدة».

وحيث أن بولس مدعو من الله للخدمة الرسولية، وقد أعلن أن له السلطان الرسولي، وأيد إعلانه بالمعجزات، وقد منح مواهب فائقة، وأظهر أكبر قدر من النزاهة، وخضع لأشد الآلام، ونال اعترافاً من الرسل الآخرين، لذلك فعندما تحدث وكتب باسم المسيح، فإن كتاباته الرسولية كانت صادرة بالأمر الإلهي، هناك ١٣ رسالة من هذه الرسائل تحمل اسمه، وقد شهد تلاميذ آخرون أن بولس هو الذي كتبها (اتس ١:١و ٢تس ١:١).

كان بولس عادة يستعين بناسخ في كتابته للرسائل، وهذا الناسخ كان يشهد لصحة ما أمره بولس بكتابته، وفي هذه الحالة كان يضيف توقيعه وتحيته (كو ٤:١٨، ١كو ٢١:١٦) كان بولس يرسل رسائله على يد رسل مخصوصين (رو ١:١٦، كو ٤:٧، ٨، أف ٦:٢١، في ٢:٢٥). وقد أطلق عليها كلمة «الكتاب المقدس» لأنها لم تكن تحتوي كلماته، بل الكلمات التي أعطاها له الروح القدس، وما تلقاه من الرب أعطاه للكنيسة.

في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس يقول بولس: «لئلا أظهر كأني أخيفكم بالرسائل لأنه يقول الرسائل ثقيلة وقوية وأما حضور الجسد فضعيف والكلام حقير» (٢كو ١٠:٩، ١٠). ما كان ينقص بولس في القوة الجسدية والبلاغة، كان يستعيضه بلا شك في كتاباته التي لا تباري والمليئة بالحق، والتعليم الروحي الذي لا ينضب. كنا نود أن نفحص الرسائل واحدة واحدة، مبتدئين بالرسالة إلى رومية، ونلخص محتوياتها الرئيسية، ولكن ذلك عمل يتطلب كتاباً في حد ذاته.

على الرغم أن بولس كتب أساساً للكنيسة والمؤمنين في عصره، إلا أنه لابد أنه كان يعرف أن رسائله كانت تحوي قيمة ثابتة، وأنها وسيلة لخلاص أعداد لا حصر لها ومصدر فرح وبركة لملايين القديسين في الأجيال التالية. نحن مدينون لبولس وكتاباته بالكثير وبالنعمة الإلهية التي امتدحها كثيراً، نتمثل به كما تمثل هو بالسيد الذي أحبه كثيراً وخدمه بكل تضحية ونحن نعترف باحتلاله لمركز ثابت في جماعة الرسل، وأن المسيح مجد نعمته وأثبت حكمته الكاملة وبعد نظره الإلهي بجعل بولس إضافة أخيرة ومجيدة لجماعة الرسل المجيدة.

ما أكثر الدروس التي يمكن أن نتعلمها من شهادة وكتابات هذا المقاتل الجسور السعيد الذي جاهد مثل هذا الجهاد الحسن لأجل رئيس خلاصه!

أول سمة تستحق أن نتمثل بها في هذا الرسول روح المحبة التي أظهرها حتى عندما اضطهد بشدة على يد مواطنيه. وحيثما ذهب، فإن سلوكه يشهد لإخلاص مناداته بأنه لا يحمل أي عداوة لليهود بسبب سوء معاملتهم له. كان ضميره يشهد له بالروح القدس أن قلبه كان مثقلاً بالحزن بسبب عداوتهم له، وأنه كان يود أن يكون هو نفسه محروماً من المسيح لأجلهم (رو ٩:١-٣). وفي كل مناسبة يرفضون فيها شهادته، كان ينتهز الفرصة لمقابلة الشر

بالخير، بدخول مجامعهم وكرازتهم (أع ١٣:٥،٤، ١٤:١، ١٩، ١:١٧، ٢، ١٠).

في سالف الأيام عندما كان غيوراً ملتهباً دفاعاً عن المذهب الفريسي، كان تصرفه مختلفاً فقد كانت روح المحبة وقتئذ غائبة، فماذا أو من الذي أجرى مثل هذا التغيير في روح هذا الإنسان؟ (أع ٩:١، ٢٦:١١، ١تي ١:١٣).

ونفس روح المحبة تسود رسالتيه إلى أهل تسالونيكي والتي يؤكد فيها على حقيقة مجيء المسيح الثاني كأساس للعزاء في وقت الحزن، كما أنها حافز للقداسة. لاحظ:

فرح الرسول لثباتهم، وترفقه بهم بسبب المحبة (١تس ٢:٧،١٣)

صلاته الحارة لأجلهم (١تس ١:٢، ٣:١٠،١٣)

رغبته القوية في صلاتهم (١تس ٥:٢٥)

وتعبر الرسالة الثانية عن نفس روح المحبة الحارة والصلاة التي تتسم بها الرسالة الأولى، بالإضافة إلى النصائح المختلفة بشأن الطريقة التي ينبغي أن يسلك بها القديسون ويشهدوا للمسيح. وتقدم لنا رسالة بولس الموجزة والثمينة إلى فليمون أيضاً درساً في كيفية التعامل بحكمة مع موضوع في غاية الحساسية. كما يعبر بالي Paly عن ذلك فيقول: «نجد في الرسالة إلى فليمون المعلم المحب العطوف، الجدير بالثقة، وهو يتوسط لدى صديق غائب لأجل متجدد محبوب، وهذا المعلم رجل مسن في السجن، وهو قانع باستخدام لغة الضراعة والتوسل، دون أن يتنازل عن حقه في الاحترام اللائق بشخصه ومنصبه».

تظهر أيضاً هذه المشاعر الدالة على المحبة في رسائله. فعلى سبيل المثال، في الرسالة إلى أهل غلاطية يفند بولس بجدة – ولكن مع إظهار أرق المشاعر– مزاعم التعريض بشخصه من قبل المعلمين الكذبة (غل ٣:١، ٤:١٥،١٦). أما عن الرسالة إلى أهل فيلبي التي كتبها باكياً، فإننا نجد الرقة، والكرامة، والتواضع، والنزاهة واضحة كل الوضوح بالنسبة للرسول (١٢:٣،١٨، ٤:١١،١٨).

والتأثيرات العملية لتعاليم النعمة التي علم بها تصلح كنموذج، ليس للوعاظ فقط، بل للمؤمنين في كل عصر.

فكر في هذه الأمثلة الإيضاحية في شخصية بولس:

إحساسه الجارف بالمسئولية كخادم، ويقظته الشديدة تجاه نفسه (١كو ٢:٣. ٩:١٦،١٧).

اعتماده الكامل على البركة الإلهية لتحقيق النجاح، ولكن مع المواظبة على استخدام الوسائل المشروعة (١كو ٣:٦–٩، ١٥:١٠).

حكمته، وأمانته، ورقته (١كو ٣:٢، ٤:١٤، ٢كو ٢:٤).

تواضعه، بالرغم من تأكيد سلطانه الرسولي، وعدم الاعتداد بالمواهب التي تفوق فيها، مقارنة بالمحبة المسيحية (١كو ١٣).

سمة أخرى تتسم بها شخصيته وهي حرصه البالغ على عدم مدح نفسه، حتى وهو يعدد أعماله وآلامه، ومعجزاته الرسولية ونجاحاته؛ كان يفتخر فقط بالرب. وتلقي رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس كثيراً من الضوء على التكريس الرائع والتواضع الذين يتحلى بها هذا الرجل العظيم! هاك القليل من الفضائل التي أظهرها:

محبته العميقة لأهل كورنثوس الجسديين، كأولاده الروحيين في المسيح (١كو ٤:١٤،١٥، ٢كو ١٢:١٥).

فرحه لرجوعهم للتوبة، ومع ذلك ينتابه القلق خشية أن تتم هذه التوبة بين أولئك الذين مازالوا متعلقين بالمعلم الكاذب، والرقة في أسلوب مخاطبتهم حين يحثهم على تقديم العطاء بسخاء أكبر (٢كو ٧ . ٩).

يقرن دائماً أعماله المدهشة بالإحساس العميق بعدم كفاءته والذي يعبر عنه في كل مكان، وبأنه لا يستطيع أن يفكر أو يعلم شيئاً من تلقاء نفسه (٢كو ٣:٥).

تواضعه عند ذكر شوكته في الجسد، وأنه سمح بمرور ١٤ سنة قبل أن يذكر اختباره الفائق (٢كو ١٢).

شجاعته التي لا يعتريها خوف. فبالنعمة تعلم كيف يرتفع إلى فوق وينتصر على تجاربه (١كو ٢:٣، ٢كو ٧:٥).

هل نحن على استعداد لأن نتبع مثال بولس، وأن نجعل حياتنا مصداقاً للإيمان الذي نجاهر به؟ «أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع». وهو يريدنا أن نفتكر ذلك عينه (في ٣:١٤-١٦). فهل نحن على استعداد لذلك؟ ألا يحضنا كي نتمثل به كما أنه أيضاً بالمسيح (١كو ١١:١)؟ ومع أننا لن نصل إلى الدرجة الرفيعة التي وصل إليها هذا الرسول الفائق، إلا أننا نستطيع بنعمة الله، أن نخدم الله بأمانة كما فعل بولس.